

تذوق متعة الحياة



«كتب "رديارد كيبليج" منذ سنوات يقول: علاّمنا يا إلهي البهجة في الأشياء البسيطة. وفي عالمنا المسرع الخطى اليوم، يمكننا أن نضيف: ولتساعدنا على تبسيط حياتنا حتى تفسح مكاناً لهذه الأشياء.

وقد عدت ذات مساء إلى المنزل في الخامسة والنصف متعجلة، متوترة إذ كنت قد تأخرت عن موعد العشاء، كما كنت أنوي أنا وزوجي حضور أحد الاجتماعات المبكرة، وناديت ابنتي المراهقة أثناء دخولي من الباب الأمامي قائلة: أعديّ المائدة.

وفي تلك اللحظة انطفأت الأنوار، ولم يكن لدينا أنا وابنتي وابني البالغ (12) سنة من العمر فكرة عما حدث.. ولم نعرف إلا عندما أدركنا راديو السيارة أنّه حدث انقطاع للتيار الكهربائي وإسع النطاق سيّب إطلام كلّ المنطقة ومدناً وبلداً أخرى على بعد أميال حولنا، وقالت ابنتي: أعتقد أنّ أبي لن يتمكن من مغادرة البلدة لفترة من الوقت؛ فالقطارات قد توقفت.

وهكذا يجب أن نسرع أكثر من أي وقت.

ولكنني أدركت حينئذ بارتياح أنّّه لن يكون هناك اجتماعات إذا ما استمر الإطلام، وبدأت استرخي وارتفعت معنوياتنا، ووجدت أنا والأطفال بعض الشموع فأشعلناها. وأوقدنا ناراً وطهينا السجق على مشواة.

وبعد العشاء جلست أندريا وبرد استذكران على ضوء الشموع، دون أن يشتا انتباههما الراديو أو التلفاز بينما بدأت أنا اقرأ ديوان شعر محبباً إليّ وكنت مشغولة جداً عن قراءته منذ أعوام؛ أما زوجي روس فقد استقل سيارة من البلدة ولحق بنا في جلستنا اللطيفة.

وبعد أن ذهب الأطفال إلى فراشهم تمهلت أنا وروس بجوار النار نرقب صور القصور القديمة بين قطع الفحم، محممين عن وضع نهاية لهذه الأمسية الجميلة غير المتوقعة، وسألني زوجي في شوق: أظنّ أنّ هذه الليلة ستتكرر؟

فقلت له مؤكدة: بلا شك.. وعلينا أن نبذل بعض الجهد فقط..

فقال مقترحاً بعد تفكير: لعل ما نحتاج إليه هو أن نقلل الجهد؛ فالاجتماع الذي كنا سنذهب إليه هذا المساء مثلاً لم يكن لدينا ما يمكن أن نشارك به فيه؛ بل كنا نظن فقط أننا يجب أن نذهب إليه.. وإني لأعجب كم من وقتنا نملأه بأشياء لا قيمة لها، أشياء ليست لها أهمية تبرر الجهد الذي نبذله من أجلها.

تُري هل كان من الممكن لو أبطأنا الخطى في حياتنا أن نجد بهجة جديدة على المناظر التي حولنا؟ وقررت أن أحاول..

وفي الصباح التالي، كنت أواجه خليطاً معقداً من المشاوير، وترتيب الدواليب، وتلميع الفسيات، وأدركت أنني على الرغم من أنني نوفمبر قد مرّ منه أسبوع كامل فإنني لم أخرج للنزهة بالسيارة في الريف المحيط بنا كما اعتدت أن أفعل في الخريف.. ودفعني هذا إلى ركوب العربة والاتجاه بها شمالاً. إن الدواليب يمكنها أن تنتظر؛ ولكن أوراق الشجر الذهبية الأخيرة لا يمكنها الانتظار.

وأوقفت العربة على طريق متعرج تحوطه الأشجار وترجلت لأمشي.. كان العشب جافاً تحت قدمي، والسماء شديدة الزرقة فوق رأسي، وكلّ شيء هادئ إلا من وقع أقدامي.

وأفزعتني صوت اندفع فجأة وتراجعت للوراء.. ثم جرى شيء ما عبر طريقي، فتبدل خوفي إلى بهجة؛ فقد كانت دجاجة برية رائعة يلمع ريشها المتعدد المتغير الألوان في ضوء الشمس وتبرق عيناها، وغاص الطائر وسط الأكمة واختفى؛ في تلك اللحظة ملأني إحساس بالرضا، وشعرت أنني قريبة لكلّ كائن حي يعيش كما ينبغي أن أفعل.

وكان قد أصبح من عاداتي أن أفكر في السعادة بمصطلحات فصيحة: السهرة الغالية التكاليف، والرحلة البعيدة. أما الآن فقد بدأت أنا وروس نضع في المرتبة الأولى النزهات المهدئة التي حرمانا منها إسرارنا المحموم؛ أيام بطولها في نهاية الأسبوع لصيد السمك، وأمسيات ننفقها في القراءة بصوت عالٍ، وسرعان ما أدركنا سخافة أننا قد سمحنا يوماً لأنفسنا أن نلفظ هذه المتع السهلة المنال خارج حياتنا؛ وبدلاً من السعادة النادرة أصبح الاسترخاء هو الجو الطبيعي، والطقس الرائق الذي يمكننا فيه اكتشاف الروائع البسيطة في الحياة والاستمتاع بها.

إننا نميل إلى أن نبالغ في تعقيد السعادة ونغامر بفقدانها خلال هذه العملية؛ فنحن نخدع أنفسنا بعدد لا يحصى من الأمور التي يجب أن نقرأها، والمسرحية التي يجب أن نراها، مثلنا مثل أسطورة متفجر الأوبرا الذي تتمم قائلاً: سأستمتع بهذه الرواية ولو قتلتنني.

ونحن نميل إلى أن نفرض على أنفسنا السرور المزعوم. وكأنّه عقوبة!

حدثت ذات مرة أن صبحت إحدى صديقاتي الطيبات - ولم يكن لديها أطفال - ابني لقضاء يوم بهيج؛ وكان ابني في الخامسة من عمره في ذلك الوقت، وأعدتّ هي كلّ شيء ليوافق إدراكه حتى يستمتع به، فذهب إلى حديقة الملاهي في الصباح، وإلى السيرك بعد الظهر، وإلى مطعم فاخر للعشاء، وكلّ ذلك دون توقف.. وعندما أعادته إليّ، وكان موعد نومه قد فات منذ وقت، شكرها من أجل ذلك اليوم الرائع؛ ولكنها ما أن ذهبت، حتى أضاف قائلاً لي: لو كنت أعلم أنني اليوم سيكون على هذه الدرجة من الروعة لفضلت البقاء في المنزل.

ونحن أحياناً ننسى السحر الذي كان من حولنا كلما تقدم بنا العمر، ونسمح لأشياء تافهة أن تشتت أفكارنا، وتطمس أبصارنا عن الافتتان بها؛ كتب هنري ثورو يقول: إن الحياة تتبدد في التفاصيل فاجعلوها بسيطة.. اجعلوها بسيطة.

كان لنا صديقان، وكان زواجهما في خطر كبير منذ وقت قريب، وكانت مشاحناتهما في تزايد مستمر، وكان أمهما الوحيد في إجازة بعيدة عن البلدة تفرّب ما بينهما.. وبالبحث في الصحف، وجدا إعلاناً عن مكان يؤجر لموسم الصيف ويبدو مثالياً وجاء فيه: موقع مختار، طرقت مرغوب فيه، كلّ وسائل الراحة، معيشة سهلة.

وعندما ذهب لرؤية المكان كادا ألا يصدقا عيونهما، فقد كان منزلاً عتيقاً متداعياً يقع في نهاية طريق ضيق قدر في قلب مكان مجهول؛ أما من الداخل، فرغم أنّه كان نظيفاً ومرتباً، فإنّه كان بدائياً جداً.

وتلعثم صديقانا وهما يقولان لصاحب البيت النظيف، وهو يدخل غليونه: ما هذا؟ لقد أعلنت عن وسائل راحة وموقع وأشياء مرغوبة.

فأجاب الرجل العجوز باعتزاز: نعم يا سيدي، إنك ستذهب بعيداً قبل أن تجد ما يميز هذا المكان في هذه الصفات، لماذا؟ انظر حولك ليس هناك طريق رئيسي لمسافة عدة كيلومترات، ستنام مثل كتلة الخشب ولا توجد ضوضاء المواصلات.

أما بالنسبة لوسائل الراحة فلديكم مكنسة، وحلتان للطهي وفرن. فليست هناك فرصة لعمل منزلي شاق، كما أنّه لا توجد فرصة لأي عمل؛ الحديقة أيضاً، كلاًها شجيرات توت وورود نمت برياً، ثم أوماً قائلاً: وهذا ما يجعل الحياة يسيرة.

وبواقع غريزي طائش، قرر الصديقان استئجار المنزل، وكتبا إلينا فائلين: إنهما ولا شك سيملان ويعودان إلى البلدة خلال أسبوع.

ولكنهما لم يعودا، وفي منتصف الصيف تلقينا منها خطاباً مثيراً للدهشة؛ يصفان فيه حياتهما في ذلك المنزل الصغير وأخبارنا كيف جلسنا معاً في الشرفة تحت الورود المتفتحة المتسلقة، يتحدثان، لأنّه ليس هناك ما يمكن عمله غير ذلك وقالوا: لم نتكلم هكذا منذ سنوات.

ومنذ سنوات، وصلتُ حديثاً إلى مدينة غريبة، عندما دعنتي صديقة إلى حفل عشاء في منزل سيدة اشتهرت بأزهارها مضيئة رائعة؛ وعندما اقتربت من ذلك المنزل الأنيق، سألت نفسي بعصبية عما إذا كان مذهري لائقاً، وما إذا كنت سأستطيع أن أصمد أثناء المحادثات التي تكشف عن سعة الاطلاع.

وبعد أن قرعت الجرس فتح الباب بوساطة امرأة تلبس ثوباً بلا تكلف.. كانت شابة ذات وجه صبيح، بددت ارتباكاً على الفور، وحدتني قائلة: تعالي معي وشاركينا في المطبخ، وفي المطبخ وجدت ست سيدات أخريات من المدعوات، واحدة تجهز السلطة، والأخريات يحملن الأطباق إلى مائدة أعدت ببساطة في الشرفة.. وقبل أن أتبين شيئاً كنت قد اندمجت ورحت أتكلّم وأضحك مع الأخريات.

كان العشاء لذيذاً والحديث مرحاً؛ وبعد أن أكلنا أحضرت مضيفتنا (إلزا) حاكياً إلى الشرفة، وطلبت منا وهي تبتسم أن نغني بكلّ أرواحنا، ثم أدارت أسطوانة لموسيقى الناي الساحرة.

وأسلمنا أنفسنا إلى خيط الموسيقى الحلو، وأحسننا رويداً رويداً برائحة الزهور تنبعث من الحديقة، والقمر الأبيض العظيم يمزج السماء صاعداً ببطء، وتجمع كثيف من النجوم، والليل.. ليل الصيف الرائع..

وعندما انتهت الموسيقى، استأنفنا حديثاً عذباً، وقد تدعمت صحبتنا بهذه التجربة النادرة التي اشتركنا فيها.

وتمتت أنا فائلة لواحدة من الصيفات الأخريات: يا لها من أمسية ساحرة منحتنا إياها إلزا.

فأجابت: إنّه تفعل ذلك دائماً؛ فإلزا تعرف ببساطة المتعة.

بساطة المتعة..! إنّه فهم ثمين، إدراك يمكن أن يملكه أي إنسان، سواء كان غنياً أو فقيراً، شاباً أو كهلاً.. وكما ذكر روبرت كاهن في كتابه دروس للحياة: حين تفرغ الحياة وتصفى الحساب فأى ذكريات ستدفن قلوبنا؟

ضحكة الطفل السعيد ونحن نؤرجحه عالياً، ومنتعة ساعة ما بعد الغذاء عندما نؤجل غسل الأطباق

لبعض الوقت، ونجلس لنتكلم فقط، والفيلم الذي شاهدناه معاً، والمثلجات التي استمتعنا بها بعده.

إنّها قطع عابرة من الروعة، وقد تأتي لكلّ من البهجة، والمتعة في الأشياء البسيطة!

حقاً.

إنّ لذة الحياة وبهجتها لا تظهران إلا في الأشياء البسيطة. ►

المصدر: كتاب تمتع بالحياة (ستون طريقة لجعل حياتك أفضل)